بريطانيا العظمى

للأستاذ أبو الفتوح عطيفة

سودى يا بريطانيا واحكمى

هذا هو نشيد القوم وحداؤهم ، ولكنه ليس هتافا تردده الألسنة والحناجر ، وتقعد عن تحقيقه الهمم والعزائم ، وإنما هو دينهم الذى ارتضوه ، ومذهبهم الذى اعتنقوه ، يقدمون أرواحهم فداءله ، ويستعذبون الردى فى سبيله ، ولاعجب فإنهم يقولون «إذا ذهبنا فابجلترا باقية

وبريطانيا التى أحدثك اليوم عنها أيها الصديق الكريم هى سيدة البحار ، وحاملة لواء الاستعمار ، زعيمة الديمقراطية ، و«دينامو» السياسة الدولية ، وهى تجثم على صدر العالم وتتحكم فيه ، ولذلك تلمس فى جميع المشاكل القائمة الأصابع البريطانية

ومن واجبنا نحن الشرقيين أن نعرف مواطن الضعف فى أنفسنا فنعمل على إزالتها ، يدفعنا إلى ذلك عاملان : أولهما حبنا لأوطاننا وحريتنا ، ونحن إذ نفعل ذلك لا نبغى إثما ولا عدوانا ؛ وإنما نريد أن نعيش أحرارا كراما .. وثانيهما أن ديننا يأمرنا بذلك ، فهو يطلب إلينا أن نكون أعزة فى بلادنا ، وقد وعد الله المجاهدين منا إحدى الحسنيين ، فإما نصر فى الدنيا وعزة وكرامة ، وإما استشهاد وقد كرم الله الشهداء حيث قال (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) ووعدهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .. لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما

وعندى أنه لكى تحقق الأمة آمالها وأهدافها لابد لها من أمرين : أولهما إيمانها بقضيتها ، ذلك أنه لا انتصار لأمة لا تؤمن بحقوقها ويختلف أفرادها فى حقيقة مطالبها ، فإن هذا الخلاف يستغله الغاصب الأجنبى لإيقاع الفرقة فى صفوف أبنائها مما يؤدى إلى انحلالها ، وهذه السياسة هى ما اتفق على تسميته بسياسة « فرق تسد »

الصحابة وأمضتهم

فقد روى مسلم فى مقدمة صحيحه بسنده عن طاووس قال : جاء هذا إلى ابن عباس (يعنى بشر بن كعب) فجعل يحدثه فقال له ابن عباس : عد لحديث كذا وكذا ، فعاد له . فقال : ما أدرى أعرفت حديثى كله وأنكرت هذا ؟ أم أنكرت حديثى كله وعرفت هذا ؟

فقال ابن عباس : « إنا كنا نحدث عن رسول الله إذ لم يكن يكذب عليه ! فلما ركب الناس الصعبة والذلول تركت الحديث عنه »(١)

وجاء بشر العدوى إلى ابن عباس فجعل يحدث ويقول ، قال رسول الله ! قال رسول الله ! قال . فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ، ولا ينظر إليه ! فقال . يا ابن عباس ، مالى أراك لا تسمع لحديثى ؟ أحدثك عن رسول الله ولا تسمع ؟ قال ابن عباس إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلا يقول ، قال رسول الله ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعبة والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف

وأخرج مسلم عن ابن سيرين قال : لقد أتى على الناس زمان وما يسأل عن إسناد حديث ، فلما وقعت الفتنة(٢) سئل عن إسناد الحديث ؛ فنظر من كان من أهل السنة أخذ من حديثه ، ومن كان من أهل البدع ترك حديثه

نجتزئ بهذه النصوص التى تدل على أن الرسول (ص) قد كذب عليه فى حياته وبعد مماته ، ولم يكن ذلك من أصحاب البدع والأهواء فحسب ، ولكن كان من الصالحين — كما سنبين ذلك فى فصل (الوضاع الصالحون) إن شاء الله

المنصورة . محمود أبو ريه

---

(١) إذا كان الناس قد ركبوا الصعبة والذلول فى عهد ابن عباس ، فما ظنك بمن جاء بعدهم ؟ (٢) حقا أن وقوع الفتنة بين الصحابة كان سبب كل بلاء دخل على الإسلام ، ولقد كان من أشد أضرار هذه الفتنة الكذب على رسول الله ، فكان كل فريق يؤيد رأيه بحديث ينسبه الى الرسول ليكون ذلك أشد تأثيراً فى النفوس

والأمر الثاني أن تعمل الأمة على إعداد أفراد شعبها من الناحيتين الروحية والعسكرية : فالجندي الذي لا يؤمن بالقضية التي يحارب من أجلها يكون قلبه هواء ؛ وسرعان ما يولي الأدبار حين ينزل في ساحة الوغى والقتال . وكذلك ليس من العدل أن نُرسل الأفراد العزل ، إلى ميادين النزال حيث تلتهمهم المدافع والقنابل

إذا تحقق هذان الأمران ، وعرف كل فرد من أفراد الأمة قضية بلاده وحقوقه المهضومة ، وعمل على استخلاصها من يد المحتل الأجنبي ، فأكد يا صديقي أن أمة هذا شأنها لابد واصلة إلى تحقيق أهدافها وغاياتها

واجب علينا إذن أن نعرف مواطن الضعف في أنفسنا فنقومها ؛ وواجب علينا أيضا أن نعرف مواطن القوة في غيرنا فنعمل على الأخذ بأسبابها في بلادنا ؛ وبريطانيا هي المحرك الأول لسياسة الدنيا في هذا العصر ، ولعل من الخير لنا أن نحاول فهم الأسباب الرئيسية لقوتها وعظمتها

الأسد البريطاني :

حاول أيها الصديق الكريم أن تنظر إلى خريطة سياسية للدنيا ، وسيسترعي انتباهك حتما سعة أملاك بريطانيا مما جعل البريطانيين على حق فيما يذهبون إليه من « أن أملاكهم لا تغرب الشمس عنها أبدا » . ويذكرنا ذلك باتساع الإمبراطورية الإسلامية في عصرها الزاهر مما دفع الخليفة هرون الرشيد أن يخاطب سحابة كانت تمر به قائلا : « أمطري حيث شئت يأتي خراجك »

تمتاز الأملاك البريطانية باتساعها ، ولا عجب ، فإن بريطانيا تحكم ثلث اليابس ، إذ تملك أستراليا وتجثم على صدر معظم أفريقيا ، وتتحكم في معظم آسيا ، ولها ممتلكات واسعة في أمريكا

ولعل مما يثير اهتمامك وانتباهك أيضا أن بريطانيا شديدة أشد الحرص على أن تكون مفاتيح البحار في يدها ، فلها في كل بحر من البحار ، ومحيط من المحيطات ، جزائر متناثرة ، ولكن أهميتها عظيمة لأنها مأوى الأسطول البريطاني الذي تسود به بريطانيا على الدنيا

الأسطول البريطاني :

بريطانيا سيدة البحار ، هذا هو ما تزعمه وهو صحيح من غير شك ، فما يزال الأسطول البريطاني « الذرع الواقي » لإنجلترا حتى أيامنا هذه ؛ بل إني أعتقد بحق أن الجندي المجهول الذي كسب لبريطانيا الحرب الأخيرة ، مع أن الناس لم يشعروا بقيمة الحرب البحرية في الحرب الأخيرة ولم يقدروها حق قدرها

ولعلنا نذكر أن ألمانيا قد استطاعت أن تكتسح أوربا في فترة وجيزة حتى بلغ بها الأمر أن استولت في ليلة واحدة على دولتين : هما النرويج والدانمرك ، وفي مدى أسبوع سقطت فرنسا تحت أقدامها ، وأصبحت ألمانيا سيدة أوربا ولم يبق أمامها سوى إنجلترا

وقد وجهت ألمانيا إلى بريطانيا طائراتها فأخذت تقذف عاصمتها بوابل من قنابلها ليلا ونهارا ، وكانت تبغي من غير شك إضعاف نفسية الشعب الإنجليزي حتى تضطر حكومته إلى طلب الصلح . ولكن الخلق الإنجليزي لا يبدو واضحا جليا إلا في أوقات الأزمات ؛ فقد صمد الشعب الإنجليزي وخاب فأل الألمان

ولعلك تسألني لم لم ترسل ألمانيا قواتها فتحتل أرض بريطانيا كما فعلت مع فرنسا ، وأنا أجيبك بأن ألمانيا قد فكرت في ذلك من غير شك ، فلما تحققت أن الأسطول البريطاني واقف لها بالمرصاد نكصت على عقبيها وارتدت عن فكرتها ولجأت إلى الحرب الجوية وانتهى الأمر بفشلها ، وظلت ألمانيا حبيسة في داخل القارة . ولما تمكنت إنجلترا من جمع حلفاء حولها نظمت قواتها وقوات حلفائها وعمدت إلى إثارة الشعوب الأوربية ضد ألمانيا ثم نزلت قواتها إلى البر في أرض حليفتها بالأمس فرنسا ، وظلت تحارب حتى تم لها النصر ، وكان الأسطول يحاصر ألمانيا وأملاكها وينقل العتاد والذخائر والمؤن إلى بريطانيا وحلفائها

لعلك قد تبينت أيها القارئ الكريم أهمية الدور الذي لعبه الأسطول البريطاني في الحرب الأخيرة ، وأنا الآن أنتقل بك إلى موضوع آخر هو : كيف أصبحت بريطانيا أمة بحرية ، وكيف تمكنت من إحراز السيادة العالمية البحرية ؟

وأحب أن أحدثك قليلا عن بريطانيا قبل أن أجيبك عن هذا السؤال . إن تلك الدولة العتيدة تتكون من عدة جزائر أهمها جزيرتان : الجزيرة الكبرى وهي تضم إنجلترا وويلز وإسكتلندا ، والجزيرة الثانية وتشمل إيرلندا ، وهناك عدة جزائر أخرى متناثرة حول هاتين الجزيرتين

وتقع الجزائر البريطانية في شمال غرب أوربا ، ويفصلها عن القارة بحر المانش وبحر الشمال وقد كان لهذا الموقع أهمية كبرى في تاريخ بريطانيا ، ذلك أنه جعلها بعيدة عن التأثر بالتيارات السياسية ، والانقلابات التي تتعرض لها القارة الأوربية ، وجعلها بمنجاة من الغزو الأوربي

كيف أصبحت بريطانيا أمة بحرية وكيف أصبحت سيدة البحار ؟ لقد رأينا فيما سبق أن بريطانيا تتكون من عدة جزائر تحيط بها البحار والمحيطات ، ومن طبيعة أهل السواحل أن يلجأوا إلى البحر المجاور التماسا للرزق وسعيا وراء السمك ، وقد ساعد الإنجليز على ركوب البحر توفر الغابات والأخشاب اللازمة لصناعة السفن في بلادهم ، ثم إن الإنتاج الزراعي لا يكفي حاجة السكان مما جعلهم يلجأون إلى البحر . هكذا تعلم البريطانيون الملاحة

وفي عصر النهضة والاستكشافات راع الإنجليز ما أحرزته إسبانيا من ممتلكات في أمريكا ، وما استولت عليه من ثروات ضخمة ، فبدأ ملاحوها المعروفون باسم قراصنة البحر بزعامة سير فرنسيس دريك يهاجمون السفن الإسبانية ، وانضمت إنجلترا إلى جانب هولندا التي ثارت ضد إسبانيا وقدمت لها مساعدات قيمة . الأمر الذي أثار ثائرة فيليب الثاني ملك إسبانيا وبلغ النزاع أشده بين دولتين : إحداهما تتزعم المذهب البروتستانتي وهي إنجلترا ، والثانية تتزعم المذهب الكاثوليكي وهي إسبانيا ، فأعد فيليب أسطولا عظيما عرف باسم « الأرمادا » ليغزو به بريطانيا في بلادها ، وهنا واجهت إنجلترا أزمة خانقة ولكنها وقفت ملكة (اليصابات) وشعبا في وجه الإسبان ، وحطم البحارة الإنجليز الأسطول الإسباني الكبير في يولية ١٥٨٨ وهكذا بدأت بريطانيا زعامتها البحرية

على أن بريطانيا لم تلبث أن وجدت نفسها أمام دولة أخرى تنافسها في ميدان الاستعمار والسيادة على البحار وهي فرنسا ، ولكن بريطانيا أخذت تنازل عدوتها ، وفي خلال حرب السبع السبع ١٧٥٦ — ١٧٦٣ تمكنت من الاستيلاء على ممتلكات فرنسا في أمريكا والهند

وجاء عصر الثورة ونابليون ، واستطاع نابليون أن يفرض — كما فعل هتلر — سلطانه على أوربا ، وبقيت إنجلترا وفكر في غزوها ، ولكن قوتها البحرية ردته إلى صوابه ففكر في طريقة أخرى ليضرب بها إنجلترا ، ورأى أن خير طريقة ، لتحقيق ذلك تكون بالقضاء عليها في مستعمراتها ، ومن هنا جاء نابليون في حملته المشهورة إلى مصر ١٧٩٨

وعرفت بريطانيا أن نابليون قد جاء إلى مصر ليقضي على إمبراطوريتها في الهند فوقفت له بالمرصاد ، وحطم بطلها العظيم نلسن الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية في أول أغسطس ١٧٩٨ وكذلك وقف السير سدني سمث يساعد الجزار باشا في عكا مما اضطر نابليون أن يعود أدراجه من حملته على الشام إلى مصر ومنها إلى أوربا

واستمر العداء مستحكما بين فرنسا زعيمة أوربا وبين إنجلترا سيدة البحار ، وجدت انجلترا في القضاء على البحرية الفرنسية قضاء تاما ، وقد استطاع نلسن أن يحقق لها ذلك في موقعة الطرف الأغر في أكتوبر ١٨٠٥ إذ حطم قوات فرنسا البحرية وكذلك قوات حليفتها إسبانيا ، وكتب للبحرية الإنجليزية نصرا رائعا دفع لها ثمنا حياته ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت انجلترا زعيمة البحار غير منازعة . وما يزال الإنجليز إذا ذكروا نلسن ذكروا بطلا ضحى بحياته في سبيل مجد إنجلترا . وإن أنس لا أنس منظرا شهدته بعيني : فقد كان المرحوم المستر جريفث يقوم بتدريس الأدب الإنجليزي لنا وكان يقرأ « حياة نلسن » فلما وصل إلى نهاية الرواية وفيها وصف مؤثر لسقوط نلسن في ساحة الشرف وميدان القتال ؛ بكى الرجل ودمعت عيناه رغم أن نلسن كان قد مات منذ أكثر من قرن وربع من الزمان

وما تزال كلمات نلسن التي وجهها إلى بحارة الأسطول قبيل المعركة دستورا للإنجليز : « إن انجلترا تتوقع أن يقوم كل فرد بواجبه » England Expects that every man will do his duty